ذكريات كنت قد نسيتها

آمال شريف

أعتقدتُ بأني شفيت من ذكريات الحرب الأهلية وبأني فقدتُ تلك الأحاسيس الممزوجة بالألم والخوف وانعدام النوم الذي عانيت منه طوال سنين الحرب الأهلية بشكل عام وخاصة حرب التحرير. يوم الرابع من آب، كنت جالسة الى مكتبي على بلكون مقزز" في بيروت. سمعتُ هدير اعتقدت أنها سيارة علقت في رمال الحديقة قربي، التفت صوب النافذة، لا توجد سيارة تتحرك ولكن غبار وهدير يقوى أكثر فأكثر وأشياء تتساقط عليّ عن الرفوف خلفي. صرختُ منادية أمي وأنا أعلم بأنها لن تسمعني. فهي تجلس في مكانها المعتاد في الغرفة الاخرى. لم أقوَ على الحراك. فعصف الانفجار أوقع عكازاتي على الأرض وكانت كرسي المتحرك بعيدة داخل الغرفة. أعتقدت أنها هزة كبيرة تضرب بيروت. أتى الانفجار الثاني وزاد رعبي أكثر. أعتقدت أن الانفجار قربنا في الشارع. في تلك اللحظات استعدت سنة ١٩٨٩، حيث كنت في نفس المكان في المنزل ولكن داخل الغرفة. تساقطت الصواريخ على منزل قديم قربنا وعلى أبنية أخرى لا يزال رنين الصواريخ في أذني. هرب أهلي الى الملجأ وبقيتُ جالسة لوحدي على الأرض في الغرفة. لا أستطيع الوقوف أترقب سقوط صاروخ أقرب ليقتلني. أن تكون مصاباً بإعاقة ما في زمن الحرب والكوارث هي نقمة، فمنذ ذلك اليوم لم أعد أجلس على الارض نهائياً.

فنحن، ذوو الإعاقات وكبار السن أضعف الكائنات في لحظات القصف والكوارث. لا نملك رفاهية الهروب السريع. أمي وأبي وغيرهم من كبار السن، وهم غالبية سكان بيروت، عاشوا ما عشته في تلك اللحظة. كم منهم استطاع الهروب أو الانتقال من مكان لاخر لتفادي الاغراض التي تطايرت فوق رؤوسهم؟ ما تعيشه بيروت اليوم مأساة كبيرة تفوق كل ما عاشته من قبل. فالدولة غائبة بكل مكوناتها وتفاعلها مع الكارثة بطيئ.

الدمار الهائل لم يصب فقط محيط المرفأ، إنما أصاب بيروت كلها وتجاوزها الى مساحات أبعد. أن نكتشف لحظة الكارثة بأننا نعيش في بلد ومدينة لا خطة طوارئ لمواجهة الكوارث الطبيعية ونحن بلد على خط زلزال ونعاني صيفاً حرائق تأكل الاخضر واليابس، وشتاء طرقات مقطوعة بالثلوج، فضلاً عن الحروب والاجتياحات التي عشناها. لم يتعلّم أحد من الماضي شي، لا من الحروب الي خاضوها ولا من الكوارث الطبيعية التي تضرب لبنان، فهذا بحد ذاته استهتار بنا بالبلد وبنا كمواطنين. فبالرغم من كل الهدر وصرف المال العام، استكثر المسؤولون شراء معدات أو تجهيز طواقم بشرية للكوارث الطبيعية وغير الطبيعية. الدولة تعوّل على المجتمع الدولي أولاً وثانيًا على سرعة تفاعل المجتمع المدني مع كل ما يصيبنا من أزمات خاصة منذ ١٧ تشرين. هل المجتمع المدني يستطيع معالجة أزمة بحجم كارثة "انفجار بيروت"؟

ما حصل تدمير لمنظومة متكاملة لمدينة قائمة بكل أسسها السكنية والعملية والاقتصادية. في جولة سريعة في طرقات بيروت والتي لم يقم بها أي مسؤول لغاية اليوم. نشاهد الكثير من المعاناة. هنا رجل يصلح "بسطة خضرا" دمّرها الانفجار هل سيتجرأ العم صاحب "البسطة" على طلب تعويض؟ ربما سيُسّطر بحقه مخالفة كون بسطته تخالف القانون. وهناك عجوز يرقّع باب منزله، وهناك من هم في

منازلهم لا يستطيعون الخروج وغيرهم الكثير الكثير في كل أحياء بيروت، الفقيرة والمتوسطة، في كل الأحياء والشوارع. كثر من المتضررين لا يعلمون كيف يطالبون بالتعويض المادي والمعنوي. كثر منهم يخجلون الاستعطاء بعد كل ما أصابهم. أين هي الفرق المكلفة من الدولة لمسح الأضرار في كل بيروت وضواحيها، لا اتحدث عن الأغذية والطبابة الحاجة أكبر بكثير من كرتونة غذاء وعلبة دواء. أتحدث عن إحياء مدينة فجّروها عن إهمال او قصد او استهتار. بيروت بحاجة لخطة عملية للتعافي من "الانفجار". تبدأ أولاً بمحاسبة كل من تسبّب بالانفجار بغض النظر عن منصبه. مبدأ المحاسبة غائب منذ ما بعد الطائف، يوم تولى ميليشيات الحرب زمام

السلطة في لبنان بدل محاسبتهم عما ارتكبوه يومها بحق الانسان والبلد، ولهذا السبب اليوم أصبح تماديهم واستخفافهم بالمطالبة بمحاسبتهم يجابه بالاتهامات الباطلة. آن لنا أن نحاسبهم عمّا ارتكبوه بحقنا من قتل وتجويع وتشريد. معظم الناس بعد انفجار بيروت يميلون الى "شنقهم" ولو أني ضد الإعدام إلا إنني هذه المرة أنا أيضا أطالب بشنق كل من تسبّب بهذه الكارثة.